محاضرات في أدب الهامش : السنة الثالثة دراسات أدبية

المهمش في الآداب الغربية :

إن فكرة الهامش ومفهومه متغيران تبعا للظروف المكانية والزمانية ،وحتى النظرة للمهمش في العرف الغربي عموما اتصلت بالمتغيرات الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والحضارية و.....التي عرفتها هذه البلاد ،وقد حصرت في نظرة الدونية والاحتقار،حيث تم التعامل معه تعاملا فوقيا عنصريا، تؤطره فكرة الآخر : الفقير، المعدم ، المحروم ، العبد، المقصي ...وغيرها من الاعتبارات المختلفة بحسب العادات والتقاليد والحضارات .

لقد حضرت صورة المهمش في الآداب الغربية على اخلاف الأجناس الأدبية ،حيث يعتقد كل من "كزافييه قالميش ودلفين بكتل " أن الرغبة في التعبير عن شخصية المهمش في الأدب تعد حشوا خاصة في الرواية ،إذ لايمكن تصميم البطل في وضعية الجبان فحينها لايهتم المتلقي له ، لأنخ يحصره في ذهنه غالبا الوصف الحسي والمعنوي لنمط موحد لصورة البطل ، وكل مايتصل بهذه الصورة من قدرة فردية للمتلقي عل تخيل الخوارق والأعاجيب التي تكلل صورة البطل وتستكمل وجوده ضمن الاطار أو المشهد الذي يظهر فيه ، وبالتالي يمكن قياس فعاليته، لخلفية أكثر أو أقل واقعية ،ضمن المجتمع الذي يتحرك فيه ، وعليه عبرت كل الروايات التي تناولت المهمش أو الروايات الهامشية عن فكرة الرفض وهو ما أطلق عليه الناقد " هانز ماير أدب غير الاسوياء " أو "أدب المهمشين " ويقصد به" الأدب الذي ينتمي إلى فئة صغيرة ، سواء تعلق بالذاتية الابداعية أو تفرد من حيث الشكل والمضمون ،فهو يتعامل دائما مع حالات استثنائية".

ويرى "هانز" أيضا أن ظهور شخصية المهمش ناتج بالأساس عن المأساة اليونانية ، التي لاتعترف سوى بالشخصية غير المألوفة ، أو ما اختلف في قدراتها المادية والمعنوية عن كل الصفات الطبيعية،وما دونها مهمش لاقيمة له أو ملعون من طرف الألهة التي تتحكم في مصائر البشر، وففي وقت لاحق قررت المسيحية في القرون الوسطى أن المهمشين هم من الهراطقة (الوثنيين ،الكفار والطائفيين واليهود) الذين يرفضون المسيحية وبالتالي يتحملون الخطيئة ،أو "مصير خيانة اليسوع "،فحسب هانز " العلمنة التي رافقت النهضة مكنت من وجود ديانات هامشية ،ولعل الشخصيات الفريدة التي نشأت في الآداب المختلفة مثل (هاملت ،فاوست ،دون جوان ،دون كيشوت) مثلت الأجانب داخل المجتمع القائم على دعائم دينية وثقافية حضارية واضحة ،وفي أواخر القرن السابع عشر ظهرت النخبة التي دعت إلى اعتناق " التسامح" اتجاه الاختلافات القائمة في العرق والثقافة والدين و الأخلاق .

المهمش غي أدب القرن الثامن عشر : لقد صادفت الارسطقراطية المثالية نشأة التنوير وأدت إلى ايديولوجية رجعية ،حيث حولت البرجوازية المجتمع من باحث عن التسامح إلى داع إلى التكامل ،وبدأ تمثيل ثلاث شخصيات هامشية في الأدب الأوربي ظهرت في نصوص متفرقة هي : النساء (جوديث ودليلة) ، مثلي الجنس(سدوم) واليهودية (المرابي)، ظهرت في وقت واحد، فعلى الرغم من عدم وجود رابط مشترك بينها ، إلا أنها جسدت مظاهر التفكك داخل المجتمع الأوربي ، حيث ظهرت مجموعة من الأبطال يماثلون قامة هاملت ، عطيل ، أوديب ،أرفيوس ،وسائر الملوك والنبلاء الذين يواجهون المأزق التراجيدي أو يصارعون قوى أكبر من قراهم علهم ينتصرون . أوربا بعد الحرب العالمية الثانية :

لقد تميز خطاب الهامش بمسحة حزينة، حيث ظهرت نصوص تعالج عجز الكنيسة على حل مشكلات الأقليات واستغلال حاجات الفقراء في المساعي السياسية البرجوازية،فظهرت نصوص من أبرزها قصيدة ل "وينكلر " بعنوان " مقبرة نارنج" وهي قصيدة ضد القمع بمختلف أشكاله ، ولم يتوقف التعبير عن المهمش في التعبير عند نقد السياسة والدين بل تجاوزه للتعبير عن المهمش وتطور بتطور الفنون وأشكلها وأصبح جزء من التعبير الأدبي العام ، حيث لم تدخر الطبقات المثقفة الناهضة للسياسات العدائية والعنصرية جهدا في محاربة كل أشكال التهميش في التعامل مع الآخر حين يكون الآخر معاديا للسلطة بمختلف أشكالها.

www.etudpdf.com

لقد سخر "أوكتافيو ميربو" قلمه وأمواله لخدمة الفقراء ، وساعد العديد من الكتاب والفنانين بأن وظفهم في دور النشر ، وقد عبرت مسرحيته" الصفقات " عن رفضه للنظام السياسي الديمقراطي الذي يتعامل مع الطبقات الفقيرة وكأنها طبقات لاتنتمي للمجتمع ،واهتم بأربع فئات في كتاباته الأدبية : فئة العبيد والمومسات والمتسولين والمجانين ،ففي روايته "يوميات خادمة " والتي صور فيها حياة امرأة مضطهدة مهمشة ،كتب أيضا مقالا عن المومسات وحقهن في العيش الكريم، تحدث أيضا عن المشردين حيث قدم صورا لهم في باريس، بحث عن أسباب تشردهم، كما قدم صورا للمهمش في المجتمع الفرنسي ، وشكل تناوله هذا نوعا من الاختلاف عن الأدب الرسمي المألوف حيث ناهض العنصرية الفكرية والثقافية في الفترة التي كانت فيها الدولة الفرنسية التي كانت تمارس أوحش أشكال الاستعمار في شمال افريقيا .

الهامش في تاريخ الأدب العربي :

إن الباحث عن ظاهرة التهميش في النتاج الشعري العربي يجد الظاهرة عميقة متجذرة ،فقد كان شعر المهمشين صورة عن الواقع الفكري والحضاري لتلك الأمم قبل أن ينورها الاسلام ، فظاهرة التهميش قبل الاسلام اتصلت بالظواهر الاجتماعية المنتشرة والتي تحكمت في منطق العلاقات بين البشر ،حيث يتصل التعبير عن هذه الفترة بالفكر **الطبقي وما نجم عنه من استعباد ، وفقر ، ودونية المرأة و.....وغيرها ن فشعر الصعاليك دليل قاطع وواضح على مظاهر** التهميش بمختلف أبعادها ، فقد برزت ظاهرة الاسترقاق في شعرهم لترسم علاقة الغبد الأسود بالآخر فارضة منطق الطبقية والعنصرية الاجتماعية بما تحمله من نظرة دونية ، فاهو عنترة يستحضر العديد من المعاني السلبية الدالة عل التميش في شعره يقول :

إذا كان دمعي شاهد كيف أجحد ونار اشتياقي في الحشى تتوقد

وهيهات يجفى ماأكن من الهوى وثوب سقامي كل يوم يتجدد

أقاتل أشواقي بصبري تجلدا وقلبي في قيد الغرام مقيد

إلى الله أشكو جور قومي وظلمهم إذ لم أجد خلا على البعد يعضد

فبالاضافة إلى الاقصاء والتهميش بسبب سواد البشرة ، يحضر الفقر كسبب آخر لتهميش طبقات المجتمع الدنيا ، وهو ما أحس به الشاعر الفقير ونقله في شعره وفي هذا الصدد يقول طرفة بن العبد :

إذا قل مال الفرد قل بهاؤه وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لايدري وإن كان حازما أقدامه خير له أم وراؤه

وفي صورة أشد إيلاما يهمش الفقير من قبل ذويه يقول طرفة بن العبد :

إذا قل مال المرء قل صديقه ولم يحل في قلب الخليل إخاؤه

إذا قل مال المرء لم يرض عقله بنوه ، ولم يغضب له أولياؤه

وفي مقابل هذا أبان المهمشون عن أولوان من الرفض والتمرد على الأهل والقبيلة ومعاني الاحتقار والاستعباد الكبير يقول الشنفرى :

خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ثمانية ما بعدها متعتب

سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مهذب

إلى أن يقول : فلما رآنا قومنا قيل أفلحوا فقلنا :اسألوا عن قائل لا يكذب

www.etudpdf.com

فقد تزامن التمرد وصف التشرد مع الحيوان والتهديد والوعيد للأهل والأعداء والفخر بالشجاعة ووصف السلاح والمراتب والفرار وسرعة العدو وكرمهم فيما بينهم ، وكذا تقديرهم للمرأة عكس ما كان سائدا في الشعر القديم .

ولم تزل صورة المهمش تتردد في شعر الشعراء العرب عبر العصور الأدبية ،لتتناقلها المقامات والطرف التي تتهكم على البخلاء ونوادر الباعة والمحتلين والحمالين ....وغيرها من الفئات التي كثر تناولها تناولا ساخرا وعنها أسهب الجاحظ ، وفي خط موازي انبرى أبو حيان التوحيدي يعصف بالولاة والقضاة رادا أسباب الظلم والتهميش لهؤلاء وقد ناله مالم يخفه الزمان من تكفير وتضييق .

تصوير المهمش في الرواية العربية :

لقد اكتسح المهمش المشهد السردي العربي ، إذ خلق الروائيو من خلال نصوصهم نوعا من التواصل الفعلي مع واقع الحياة في أكثر صورها البائسة تغييبا ، حيث شكلت كتابة المهمش حوارية بين الراوي والمنظور الشعبي ، حيث عمد بعض الروائيين إلى انتاج روايات تعبر عن وعي فئات الشعب تتقاطع في كل أسباب المعاناة، ليعكس هذا السرد بصورة واضحة تطور مفهومي الدونية والاقصاء ببلاغة المهمش ولو كان منقولا بوعي الروائيين الذين اعتبروا مركزا أو نخب في ظل الفهم المؤسساتي ،وفي هذا الصدد يقول جمال الغيطاني : لابد من الاحاطة في سطور بالمشهد الكلي للقصص وروايات تناولت المهمشين ،وإن كانت ثمة نماذج بارزة في تاريخ الابداع ، فهناك أعمال ديستوفسكي ، وغوركي ،وتشيكوف ، وهيمنقواي ،وكامي ، و....وكلها احتفت بشكل أو بآخر بنماذج من بشر عاديين "مهانين "دائما على المستوى المادي والمعنوي ...."ومن جهة أخرى فقد قال أنور الخطيب أن رواية المهمشين ازدهرت في السنوات العشر الماضية، حين كشفت الحركات الشعبية في العديد من الدول العربية عن الشرائح الفقيرة ،والعاطلة عن العمل ، والفئات المنبوذة في مجتمعاتنا ، وعن شرائح كانت تعاني التمييز ،في بعض المجتمعات العربية ،وتلك الفئات المعارضة المثقفة التي كانت تنحاز للمعارضة في وجه الأنظمة الدكتاتورية والاستبدادية .

كما كشفت عن شرائح تعاني التمييز العنصري والتهميش بسبب اللون ،موضحا أن مشهد العشوائيات وسكان المقابر في كل بلد عربي يؤكد وجود المهمشين ، كما أكد على أن الرواية العربية تطرقت للمهمشين منذ زمن ،من خلال المغربي محمد شكري ،نجيب محفوظ ، ومحمد البسطامي ، صنع الله إبراهيم ، إميل حبيبي ، غسان كنفاني ، إلا أن الرواية العربية التي كتبت ما بعد 2010 أخذت منحى آخر للحديث عن المهمشين ، مركزة على جانب تأمين العيش للفرد بكرامة والتعبير بحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية وكبح كل محاولات القهر والاقصاء السياسي ، ففي الأعوام الثلاثة الماضية ركزت على قضايا الاضطهاد الديني والسياسي ، التي تكاد تكون ملحوظة في أكثر الروايات العربية الصادرة في هذه الفترة .مثل : نجيب محفوظ في روايته " ميرامار " ، عبدو خال " ترمي بشرر " ، يوسف المحيميد " فخاخ الرائحة" ، الطيب الطويلي " نقمة المهمش " ، محمد شكري الخبز الحافي " ، صنع الله ابراهيم "بحيرة المساء "، "يوسف والرداءّ ، خيري شلبي " سارق الفرح " وغيرها كثير .

إن مقولة الكتابة عن الهامش لا تقصي حقيقة الأمر رواية كرواية زينب لهيكل التي تناولت حياة فلاحة فقيرة ، بل ونقل مؤلفها عبرما اعتبر جرأة فنية وكسرا عميقا لحواجز الكتابة من الهامش إلى المركز ، ولا هو اقصاء لروايات محفوظ التي تشبثت بنقل الحياة الشعبية إلى سطح الرواية المركزية ، ومهما يكن فإن جل الأعمال الروائية والقصصية قد أحدثت شبه صدمة أخلاقية جس من خلالها المنع الذي يمكن أن تمارسه السلطة بشتى أنواعها وفروعها من محاولات التضييق ، ولن نكذب إن قلنا بأن ذلك قد حصل فعلا وفي أكثر من مناسبة حيث منعت بعض الأعمال الروائية والقصصية من البيع ، أو النشر في دول معينة لأسباب ومعايير أبعد ما تكون عن المعايير النقدية الموضوعية.

www.etudpdf.com

2- المجتمع :

يمكن أن نلاحظ حضور للهامش الاجتماعي عبر ثنائية القرية المدينة ، ثنائية ترسم التباعد بين عالمين عبر ثنائية المدينة \القرية ، حيث تقدم موضوعات تثير قضايا الاغتراب في المدينة ، وضياع القروي في متاهاتها .واللافت هو تكرار صور التهميش ومظاهره ، وما يلاقيه القادم من القرية من اقصاء يثير فيه الاحساس بالظلم . هي صور لتجاذبات المركز والهامش التي تعكس مدى الاختلال بين الريف والمدينة في مجالات التنمية الاجتماعية فمثلا في قصيدة " مقتل القمر" تحضر الثنائية مؤشر لمعانات فئات اجتماعية ممثلة في القرية على حساب المركز الممثل في المدينة التي ظلمت القرية وحرمتها من العيش الكريم يقول أمل دنقل:

" وخرجت من باب المدينة....للريف

يا أبناء قؤيتنا أبوكم مات

قد قتلته أبناء المدينة

ذرفوا عليه دموع إخوة يوسف

تركوه فوق شوارع الاسفلت والدم والضغينة

يا اخوتي هذا أبوكم مات "[1]

فمقتل القمر رمز لقتل القيم ، فلو قمنا بتركيب الصورة من منظور المركز والهامش ، فالقرة تعد مكان هامشي مقصي محروم من عملية التنمية ، صورة للمعانات ، فأغلب المجتمعات العربية ذات أصول ريفية تعيش التهميش ، فإذا كانت المدينة موضوعة لنماذج المهمشين ، فإن القرية أصبحت هامشا كليا ، تعج بالفقر ومظاهر التخلف ، وهو مانجده عند البياتي الذي يرسم صورة أخرى للتهميش الاجتماعي يقول : " وفي قريتنا كان أطفالنا يغنون للأرض غب المطر

على سفح "حمرين "يافتنتي

ليالي الشتاء ...وصيحات أطفالك الشاحبين وراء السحاب

حفاة .عراة

تذكرني بعهود السراب ، بعين أبي المطفأة ،

بطيف امرأة مجللة بالسواد ، وراء حقول الرماد

تذكرني بسيول الجياع ، وهم ينبشون التراب " [2]

www.etudpdf.com

فموت الأب رمزية خاصة تحيل على " نسق ثقافي اجتماعي " يدل على مفهوم الحماية ، فالنص يتجاوز صور الجوع في القرية إلى موضوع أشمل عندما يصبح الوضع شاملا فهي صورة يقدمها الأدب لحالة اجتماعية تحضر عبر صورة القرية البائسة المهمشة لتدلل على المركز بمفهومه الواسع .

ونماذج الهامش الاجتماعي كثيرة في الادب العربي ،بحيث يجد المتصفح له عينات بشرية تجسد الفقر والمعاناة والتشرد وك ألوان الاقصاء والإبعاد ،فعالم الهامش في المدينة (بغايا، مشردين ، فقراء، متسولين .....)، قد تشكل من الفارين من الهامش محاولين الخلاص منه ، إلا أنهم وجدوا هامش آخر يعج بالموت والتشرد و....، فظاهر المدينة البراق الخادع يخفي شقوق الهامش العميقة والتي يسعى أدب الهامش على كشفها من خلال تقديم صور تفضح الواقع عن طرق تعريته ، مثل ما فعل عثمان لوصيف حيث يختصر الصورة فيقول :

"طفل مخبول يقتحم المدينة

يكشف عن عورتها

ويعرض فضائحها للاشهار

مدينة تتستر بالمكياج

إن أردت أن تكشف عن وجهها الحقيقي

فالتمسه في دور العجزة "[3]

فالشاعر هنا يكشف عن الوجه الخفي للمدينة ، وما تخفيه من مظاهر التهميش التي تدل على الفاصل بين حياة المركز والهامش ، وعلى عمق الهوة بينهما ،حيث أن للمدينة وجهان أحدهما ظاهر قدمه الادب وهو وحه جميل براق ، ووجه خفي تلفه الظلمة والغموض والقهر والمعاناة ، إنه ممثل في شوارع المدينة الخلفية التي تجسد أحياء الفقر ومأوى المهمشين ، وهو الأمر الذي يحيل على الظلم الاجتماعي المسلط على هؤلاء ، حيث نجد صلاح عبد الصبور يقدم صورة سعرية متناهية الدقة لعالم الهامش ممثلا في الكشف عن واقع المتسول يقول :

" ويظل يسعل والحياة تموت في عينه

والبسمة البيضاء تمهد فوق خديه محبة

لك،ولي، لمن داسوه في دروب الزحام

ألقى السلام .....وهناك ، في ظل الجدار ، يظل إنسان يموت"[4]

تركز الصورة على على المكون الجسدي فترسم معالم هذا الجسد المهان وتكتمل معالمه بالمكون النفسي الدال على الهوان والمأساوية فمشهد المتسول يبدأ بالاشارة للمرض الذي يعد طريقا للموت ،أما الخلفية النفسية فيمكننا أن نقرأ أحاسيس العزلة والانزواء في الركن مسندا ظهره لإلى الجدار في انتظار الموت .ليغدو الجدار هنا علامة مفصلية من حيث الابعاد الاجتماعية والثقافية ، حيث تصبح العلاقة بين المشرد والجدار من حيث تمثلاتها الاستعارية علاقة متبادلة بمايمكن أن تشكله من خطابات وأنساق معرفية قابلة للتأويل والاستدلال عل سلسلة من الاقتراضات المرتبطة بمنظور المركز والهامش .

www.etudpdf.com

فالتفاصيل المقدمة عن المشرد والمرفقة للصورةتظل تؤشر لخلفيات الخطاب (الاجتماعي، الثقافي ، السياسي ، وغيرها من الخطابات الخفية)التي يمكن أن تحيل عليها تفاصيل الصورة ، وهو ما يمنح القارئ حرية الانتقال من حقل معرفي لآخر ،فالمشرد يظل مرتبطا بالجدار لصيقا به ، على الرغم من محاولاته المتكررة لفت الانتباه بواسطة التحية كاشارة منه لوجوده كانسان وتنبيها منه لغيره بكفية ذلك الوجود ، على الرغم من هذا الاعلان تبقى جموع المركز متجاهلة له متجاوزة له وكأنه غير مرئي وغير موجود ، وذلك لأن الجدران القائمة في عقولهم حجبت عنهم الحس الانساني ، ليتحول الهامش بكل مظاهره عالما مرادفا للموت والابعاد .

إن المتصفح لجملة من الروايات التي تنتمي إلى أدب الهامش يجد جل موضوعاتها الفئة الضعيفة المهمشة المهملة المضطهدة سواء في المشرق أو المغرب ، والبداية كانت مع روايات محمد شكري (الخبز الحافي ، وجوه ، الشطار) هذه الثلاثية التي أبدع الروائي فيها في رصد عالم الهامش والمهمشين في المغرب حيث امتزجت حياته مع حياة أبطاله ،لتجسد واقع الفقر والحرمان والمعاناة ،إذ نجد فيها وصف دقيق للواقع المغربي القاسي والمؤلم للمهمشين ، إنها تجسد مظاهر حياه الهامش الاجتماعي بكا مافيه محاولة منه للكشف عن المسكوت عنه والمخفي والممنوع .

3- السياسة :

لقد تبنى الخطاب الأدبي في منظور ثنائية المركز والهامش خطابا انتهج النقد السياسي خلفية له ليتبنى تفكيرا معارضا للانظمة السياسية التي هي عنوان لكبت الحريات ، ولذلك كان الاديب يعيش بين عزلة أو نفي أو سجن عبر عنخا من خلال استغلال صور التهميش المختلفة تصريحا أو رمزا ،حيث يطرح قضايا تعيد صياغة الهامش من خلال تبني القضايا السياسية والفكرية المختلفة .

إن تمثيلات التجاذبات بين المركز والهامش التي تمتاز ببعديها الواقعي والاجتماعي تتحول على المستوى الأدبي إلى اختلاق مركزية ذاتية يرتادها الخيال لمحاولة إعادة التوازن بين واقع التهميش مهما كان مصدره وحلم المبدع بحياة أفضل ، وهو في ابداعه يعكس قضية أعمق انتجها المركز السياسي ،تجسد تأملات متمركزة حول الذات ومرتبطة بعدم الانسجام مع الواقع ، والانكفاء داخل الذات يمثل علما فسيحا حرا للمبدع وتمثيلا لمكان يقع على هامش الحياة الواقعية ، فظاهرة التمركز في الذات تعد محاولة للخلاص من هامش الواقع السياسي الظالم وتعد كذلك نوع من الاستبدال له بعزلة داخلية مدام المبدع قد عجز عن التغيير والنواجهة ، لذا يلجأ إلى أمكنة تنتج عالما تشيده اللغة الحالمة ، وفي هذا الصدد يقول صنع الله إبراهيم :

" ها أنا الآن وحدي عل قمة الكون

أسند هذا المدى .....

ودمي نازف يتعثر

لا أرقب الآن نجما يطل

ولا عابرا يمسح الحزن عن خضرة الروح "[5]

يجسد النص عزلة عبر رؤيا تتحسس وجود الذات خارج المكان ، فاعلان الوحدة يستلزم محلا يحتوي المكان لكن يستحيل الوصول إليهلأنه يتضمن أقسى حالات العزلة المتمركزة حول الاحاسيس والاغتراب واللانتماء ، ولذلك فإن أغلب

www.etudpdf.com

الصور تشير إلى موضوعة اليأس والظلام والظلم و...لغدو الانعزال محالة لرفض الهامش والتحرر من المركز بكل ممارساته الجائرة ،وبذلك تتحول محاولة البحث عن مكان محاولة لايجاد متنفس للحرية واختيار نفي الذات في علم القصيدة :

" كم هو فقير وحقير

عالمكم أيها النبلاء

عيشوا أطفالا مثلي

كي تكتشفوا ثراء الوجود

أين مكانك أيها الشاعر افي عالمهم الجديد ؟

مكاني في الرؤيا والكلمات "[6]

فالشاعر هنا يبحث عن معبر إلى الحلم الذي يسيطر عليه المركز ، لذلك ينقل مواصفات الهامش ويسقطها على المركز ، ليصبح عالم المركز من عوالم الاحتقار ، فتغدو معه الكلمات والرؤيا رفضلا للعالم كما هو عليه واستبدالاله بعالم بديل مخالف له تماما .

يحضر تمثل المركز السياسي بممارساته الجائرة المستبدة من خلال تجسيدها عبر التعبير عنها بتقديم صور للظلم المتمثل في الابعاد والاقصاء ومنع حرية الرأي ،حيث نجد البياتي يقوم بتجسيد العلاقة الجدلية بين المركز والهامش غير المتكافئين ، ولعل تجربته تزيد من وضوح الهامش السياسي عندما يصف حاله بعدما عبر عن أفكاره بحرية في حضرة المركز الذي يمارس سياسة المنع يقول :

" أعرفت معنى أن تكون ؟

متسولا عريان ، في أرجاء عالمنا الكبير

وذقت طعم اليتم مثلي والضياع

أعرفت معنى أن تكون لصا؟

طارده الظلال

والخوف عبر مقابر الريف الحزين "[7]

يجسد الشاعر حكاية اقصائه من قبل السلطة التي لم ترضى عنه لأنه صرح بأفكاره وحاول النقد والمعارضة ، وقد يقدم المبدع على تحويل هامشه مركزا يخرج منه كل رمز للسلطة والحكم ،وهو مانجد عثمان لوصيف يجسده بقوله :

أيها الحاكم،

أيها القاضي ،

www.etudpdf.com

أيها الشرطي

لن تدخلوا مملكتي إلا إذا اعتنقتم ديني "[9]

فالشاعر هنا بنى مملكته الخاصة التي يغيب فيها أي تواجد للسلطة والحكم المجسدين للمركز في محاولة منه التخلص من كل تهميش ،أراد أن يعيد ترتيب القوى في عالمه الذي يحب أن يتواجد فيه ، عالم خالي من مركزية السلطة الظالمة ، من كل ممارساتها القمعية ، عالم يحس فيه بالحرية ،عالم يسوده دين واحد وهو دين المساواة والعدل.

لقد لجأ المركز إلى سياسة النفي لكل معارض متمرد مخالف لسياسته ومتعارض مع طبيعته الاستبدادية ، ووجه لهم تهما جاهزة كالخيانة،والفوضوية ،وأحمد مطر يلخص المعاناة في حكاية بسيطة ، تتمثل في ذهابه إلى الطبيب ، فلم يجد الطبيب من سبب لألمه سوى في قلم كان يضعه في جيب بذلته الداخلي يقول :

" هز الطبيب رأسه ....ومال وابتسم

وقال لي سوى قلم

فقلت لا ياسيدي

هذا يد وفم

رصاصة ودم

وتهمة سافرة

تمشي بلا قدم "[10]

فالسلطة مارست الاقصاء الفكري ومنع التعبير عن الرأي ، وهي من أشكال التهميش الشائع التي تعود المركز وتوظيفها،فلا مكان للقلم رمز التفكير الحر ، رمز الدفاع عن الحق وعن المستضعفين ، رمز الكشف عن الحقائق ، ورمز النقد والتمرد ،إلا في الهامش ، لذا حاول الشعراء اعتماد الرمز ، بالعودة لتاريخ المهمشين ليستخلصوا منه أقنعة علها تخترق حواجز مصادرة الحريات ، وعرفت هذه التقنية ب" الشخصية القناع" .

والحديث عن عالم التهميش السياسي ورسم لمعالم الاستبداد السياسي المسلط على الفئات المهمشة على اختلاف مستوياتها في الاعمال الأدبية العربية عامة والجزائرية خاصة كثير ،حيث نجد جل الروايات الجزائرية التي احتفت بالمهمشين والتي قامت بتقديم صورة واضحة المعالم عن الصراعات السياسية والقمع السياسي والاقصاء عبر ممارسات قمعية تتخذ أشكال مختلفة عبر عنها أدب الهامش وحاول الكشف عنها وتعريتها ، فقد وقفت هذه الأعمال على الواقع اليومي المتردي ، وعرت الانتهازيين من رجال السياسة ، وسلطت الضوء على المهانين والمنسيين والمقموعين ،وكشفت اتجاه النخبة ممن انساقوا وراء تيارات براغماتية ، وصورت ألوان الظلم الواقع على المهمشين ، لتعرية سياسة القمع ، ووتكشف حجم الفساد ،وجور الحاكم وضعف المحكوم.

فالمهمش في الرواية الجزائرية شخص عادي مهان على المستويين المادي المعنوي ، يحمل بداخله مشاعر وأحاسيس العبقرية ، لكنه لاتمنحه قدرا كافيا للتواصل والتفاعل مع الآخر وبذلك يلجأ البعض إلى الانتحار والاستسلام للعجز والكآبة كردة

www.etudpdf.com

فعل على ظلم الواقع السياسي المتردي ، ومن بين هذه النماذج السردية نجد أعمال الطاهر وطار " اللاز " ، عبد الله عيس لحليح في " كراف الخطايا" ،"ياسمينة خضراء "إلهة الشدائد " ،بوعلام صنصال في "حراقة "، ياسمينة صالح "وطن من زجاج "غيرها من الأعمال التي رسمت معالم الهامش وجسدت حياة المعاناة والألم التي يحياها المهمش على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والفكرية فهذا النوع .

www.etudpdf.com

فنون أدب الهامش وأنواعه :

لأدب الهامش العديد من الفنون والأنواع سنتعرف على هذه الأنواع وعلى خصائصها وموضوعاتها :

1- الشعر:

فكرة الهامش والتهميش قديمة في الشعر ، حيث رافقت الشعر على مر عصور تطوره من الالعصر الجاهلي إلى العصر الحالي،فالشعراء همشوا اجتماعيا ، وغيبت العديد من النتاجات الشعرية والكتب النقدية ،ولم يعتد بأشعار الشعراء المهمشين الذين نبذوا ورفضت المؤسسة الاجتماعية سلوكياتهم ، فالشعراء الصعاليك نموذج واضح لشعر الهامش ، همشوا لأنهم تمردو على تقاليد المجتمع القبلي في طريقة كسب المال واقتناصه من ذوي المال والجاه ،وقد استوعب هؤلاء "المشكلات الاجتماعية المستفحلة واستظهروا أسبابها ووضعوا لها الحلول الصحيحة ....ودعوا إلى الاصلاح وايجاد سياسة قويمة تحقق العدل والمساواة " [1] ،فهم لم يعترفوا بسلطة القبيلة وواجباتها ،فطردوا من قبائلهم ومعظم هؤلاء مجيدين وقصائدهم تعد من عيون الشعر العربي ،غير أن شعرهم عاش في الظل لأسباب لاعلاقة لها بالفنية والجمالية يسميهم أحمد السيد أبو المجد " شعراء الظل " " فهم طوائف لم يعتن أحد بهم مع أنهم أبرز من شعراء وأدباء كثيرين " [2] ، كما أن اشعارهم وجدت دون نسبتها لأصحابها مثل ما ورد في كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي ، فكانت أشعارهم شتاتا بين المصادر القديمة ، بسبب تهميشهم من سلطة المركز التي جعلت منهم " شعراء مغمورين لم يتم الاستشهاد بشعرهم رغم ما له من دور في استكمال خارطة الأدب كله "[3] ، تمرد الصعاليك على القبيلة وثاروا على نظام القبيلة وخالفوا نظام القصيدة الجاهلية بحيث تخلصوا من المقدمة الطللية وعالجوا موضوعات مختلفة عن تلك التي عرفت سابقا ، فجاءت قائدهم مثقلة بأحاسيس القلق و المعاناة والمرارة والشعور بالوحدة حيث لم يكن لهم نصير غير سيوفهم يقول الشنفرى :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

ويقول تأبط شرا: من شوق وايراق ومر طيف على الأهوال طراق

1- حسن عطوان : الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ،دار الجيل ، بيروت ، ط 4 ، 1994 ، ص 5.

2- أحمد السيد أبو المجد : شعراء الظل في العصر العباسي الأول ، دار جرير، ط 1 ،2010 ،ص9 .

www.etudpdf.com

3 – المرجع نفسه ،ص 29 .

يسري على الأين و الحيات محتفيا نفسي فداؤك من سار على ساق

فعلى الرغم من معاناته وشوقه لأهله وخاصة أمه إلا أنه سيبقى متمسكا بحياة الصعلكة لأنها تمنحه الحرية .

نموذج آخر عن شعر الهامش الشعر العذري فقد ذكر الطاهر لبيب صاحب كتاب " سوسيولوجيا الغزل العربي " الذي ترجمه محمد حافظ دياب إلى العربية عن الفرنسية الوضع الهامشي لهذه الفئة ، فئة العذريين الذين يمثلون جماعة لم تستطع التكيف مع العالم ، فأصبحوا جماعة واقعية هامشية بصورة مميزة ،ولاسيما على الصعيد الاقتصادي ، ذلك لأن مرفولوجية الحجاز ليست متجانسة تماما فالقرى والضواحي التي قطنها هؤلاء معزولة عن نجد شرقا ، وعن تخامة غربا بسلسلتين جبليتين متوازيتين من جبال الحجاز ،وهذا الاطار الجغرافي يحد من حركة العذريين ومن اتصالهم بالعالم .

لقد شهد العذريون بعد الاسلام تحولات الدولة الاسلامية انتشار القيم الاسلامية ، التمجيد العرقي السياسي للعنصر العربي ، التطور الحضري الضخم ، السلطة المستبدة التي راحت تعمق التناقض القديم بين الحضر والبدو ، وأدى كل ذلك إلى عداء من البدو للسلطة التي لم تهتم بهم ، وهكذا شكلت الطبيعة الجغرافية هامشية الجماعة قبل الاسلام ،أضف إلى ذلك الذوق العام الذي كان سائدا فالمركز كان ممثلا بالغزل الماجن والهامش بالعذري، فقد اجتمعت هامشية جغرافية وأخرى اقتصادية مع لامبالات ثقافية ، ليغدو شعرهم تعبيرا عن هامشية عميقة.

من نماذج شعر الهامش الشعر الصوفي الذي عاش التهميش والذي تحدث عن فئات مهمشة ،فقد همش هذا النوع لانه خالف الذوق العام وخالف السائد ، ولم يرق للمركز ثقافيا ولا اجتماعيا ، فهذا الشعر كان يعالج قضايا فلسفية ويخوض في الماورائيات وجل القصائد كانت تنظم في الحب الالاهي وهي أفكار لم تفهمها العامة فاتهم أصحابها بالزندقة ، فالحلاج الذي سلك طريق الحق والهداية ،ووقف ضد الظلم والطغيان الذي كان سائدا وسط المجتمع ،لذا اتهم بالزندقة ومحاولة تغيير أفكار الناس ووضع حيل على تضليلهم ،وادعائه النبوة ، فابعد واقصي حيث أعدم صلبا في رحبة الجسر وأحرقت جثته .

الحلاج صاحب مقولة " أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

فالناس لم يفهموا ماكان يقصد الحلاج لذا اتهموه بالكفر والتمرد على السلطة وعزل وهمش وهو حال أغلب شعراء التصوف حيث يقول في حبه لله :

والله ماطلعت شمس ولاغربت إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولاجلست إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثي بين حلاسي

ولاذكرتك مخزونا ولافرحا إلاوأنت بقلبي بين وساوسي

www.etudpdf.com

ولاهممت بشرب الماء من عطش إلا رأيت منك خيالا في الكأس

فالمتصوفة شعراء وصلوا درجة عالية من المحبة الالهية التي لم تتمكن العامة من ادراكها أو بلوغها مما جعل هذه الاشعار ترفض وتهمش هي وأصحابها .

الشعر الشعبي :

لون من الشعر يعتمد اللغة العامية ‘فقد خرج عن قواعد وقوانين المؤسسة الرسمية لذا أخرج وهمش ، ومن بين أسبابتهميشه مجهولية المؤلف جرأته في معالجة بعض القضايل التي تتعلق بحياة الطبقات الشعبية التي تعاني اتهميش ، مركزية الفصحى التي تقف عائقا وحائلا أمام الشعر الشعبي بلغته البسيطة ، المعبر عن آمال وآلام الشعوب ، فاللغة "الراقية هي المعيار الرئيسي لتدوين الشعر واتخاذه موضوعا للنقد الأكاديمي ، بل نجد في الشعر الفصيح نصوصا قد أجازتها المؤسسة الثقافية بالرغم من بساطتها التي تصل حد السذاجة فيما رفضت نصوص الشعر العامي بالرغم من جمالية الصورة وجديتها .

فالتهميش طال هذا النوع من الشعر العربي على اختلاف تسمياته في الأقطار العربية ، بسبب اللغة التي روي بها ، فضاعت قصائد وغمر شعراء أكفاء لا لشيء إلا لأنهم يعبرون بلغة الشعب عن هموم وألام الشعب ، ومن ألوان الشعر الهامشي الحديثة التي همشت قصيدة النثر ، التي خرجت خرجت عن المألوف ، فالنثر الشعري " هو أدب مخاتل وغامض وربما وممنوع ومطارد ومغضوب عليه من السلطة وحراسها أو حراس أدبها ، وتمثل هذا الانموذج بالجنوح السافر إلى كتابة الشعر بالنثر ، وهو ما استقرت عليه تسميته بقصيدة النثر الخارجة من جبة الحداثة ومعطياتها الأدبية التي جاءت على أنقاض الرومانتيكية "[1] .

إن تهميش بعض الأجناس الأدبية في تاريخ يرجع إلى ردة فعل من قبل المهمشين الذين وجدوا في الرومنسية ، وفي الدعوات إلى الثورة على المركز ، رافدا لتحطيم هذا التهميش باعلاء شأن الهامشي الذي طالما وصف باللاأدب ف " هذا الأدب هو أدب اللاسلطة ،وأدب رفض السلطة ،وهو في دوره هذا يصبح أيضا الثقافة السائدة إلىحد بعيد يتحول الخارجي إلى الشخصية التي تحتل المركز ضمن المجال الثقافي ، وتنتقل الكتابة الخارجية من الهامش لتصبح الثقافة الأكثر مركزية وانتشارا"[2] ،وعليه تصبح قصيدة النثر أداة للثورة على السلطة الأشكال التقليدية ،حيث اتخذ منها الشعراء المتمردين على سلطة الأبوة ، ومركزية الأجناس الأدبية النقية ، مطية لاعلان تمردهم عن كل قيد و" قصيدة النثر هي نتاج الصراع بين المركز والهامش ، بين السائد والمتمرد عليه بل" يمكننا أن نحدد قصيدة النثر طبقا لوظائفها الايديولوجية بوصفها قصيدة الهامش التي قامت بالضد من المركز الذي يضمن له حضورا ميتافيزيقا يعطيه في آن معا قيمة حضورية وكيانا مغلقا على نفسه

1- أحمد علي محمد : مفهوم قصيدة النثر في النقد العربي ، الأصول والتحولات ،رسالة ماجستير ن كلية الآداب ،بغداد ،2005 ،ص.

2- كمال أبو ديب :الحداثة ، السلطة ،النص ، مجلة فصول ، ص 39 .

3- علي بدر : تاريخ قصيدة النثر العربية ، مقاربة ابستمولوجية ،مجلة الطليعة الأدبية ،دار الشؤون الثقافية ،بغداد ،ع1،1999 ،ص14 .

www.etudpdf.com

ويمنحه قيمة يقينية ثابتة لها القابلية على ابعاد كل شكل مغاير ومختلف "[3] ،فقصيدة النثر أحدثت قطيعة مع الشعرية العربية ،واجترحت لنفسها طريقا جديدا وهيت حاول ارتياد آفاق التجريب ، عن وعي بانتمائها للهامش الذي تنتصر له بشكل واضح .

وعلى العموم فشعر الهامش هو ذاك الشعر الذي اتخذ من الممنوع والمرفوض والمنبوذ مادته ، وهو ذاك الشعر الذي اتخذ من الرفض والتمرد والثورة وسيلة للتعبير ' ومن القضايا الهامشية والنماذج البشرية التي تعاني الابعاد الاقصاء ويمارس عليها الظلم موضوعا له ،محما كان نوعه .

2- الرواية :

إن أهمية الخطابات الهامشية تتأتى من نزوعها الدائم إلى النفور من القوالب الجاهزة ،وثورتها عل السائدة من القيم والمعتقدات ، مما يجعلها في حركية دائمة ، وتجدد مستمر ،تجدد يصنع رونق الأدب من جهة ويصنع سيرورة التاريخ من جهة ثانية ،لأن الحركات المنبوذة هي التي تصنع التاريخ فالخطابات الهامشية تتكأ على التمرد على السائد وهو ما يدفعها إلى " خرق ميثاق النوع الأدبي بإنتاج كتابة تقف في المنتصف بين السيرة والتخيل الروائي ، أي بين انتاج نوع من الابداع السردي لايعترف سوى بالكتابة كمفهوم خام وخال من التحديدات الأجناسية المقولية "[1] .

وهذه الكتابة لاتكتفي بخرق الأجناس الأدبية وتهديم الحدود فيما بينها ،بل" تسعى إلى خرق منظومة القيم بتهديم اليقينيات ، وتحطيم الطابوهات ، وولوج أدغال المحرم والممنوع لتشكل تلك الكتابة العارية أو الكتابة البيضاء التي هي تلك الكتابة الحيادية المبنية على التباعد واختراق المسافة الأخلاقية التي ظلت تسيج الأدب بتخوم غير أدبية "[2] ،ولهذا السبب ظلت المؤسسة الرسمية ترفض هذه الكتابة إذ"لما كانت الأجناس الأدبية هي نفسها صنيعة المؤسسة الرسمية إنها تعتبر هذا الأدب كائنا منبوذا ومهمشا ،لعدم انضباطه لتوجهاتها واختراقه لبنياتها الموجهة من طرف التقاليد الدبية المتعارف عليها"[3] ، فهو يمثل الطرف المضاد والمعادي والمتمرد الذي يجب ابعاده .

لم تكن الرواية بعيدة عن تناول موضوع الهامش والمهمش ، غهذا النوع من السرد المحتفي بالهامش "يراهن عل الاشتغال على رؤية متصلة بالراهن المعيش ، وبالسياقات السياسية والثقافية التي أنتجت هذه الكتابة المرتكزة على فضح آليات الاقصاء لعناصرها الثقافية ، كطذلك تراهن على رؤية العالم لتحتفي بما هومستبعد من قيل المركزفي ظل سياق ســــــــــياسي وثقافي متباين ومغاير للسابق " [4] ،فقد انتقلت الرواية بعلاجها لهذا الموضوع لعرف فني جديد أكثر استغلالا لفنيات الرواية وتجديدا لمضامينها أو محاولة من خلالها للاقتراب أكثر من الواقع ونقل ما يحدث فيه دون تلميع ، ويعد هذا" بمثابة بديل لتنويع لغوي حواري معرفي لاتوفره شروط العيش للمهمش أو للهامشي ، أو

1- حسن بحراوي : أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية ، مجلة علامات ، ع 18 ،ص13 .

2- المرجع نفسه ' ص13 .

3- المرجع نفسه ، 9 .

4- هويدا صالح : الهامش الاجتماعي في الأدب – قراءة سسيوثقافية ، دار رؤية للنشر والتوزيع ، ط1 ،2015 ، ص27 .

www.etudpdf.com

لنقل أن ثقافة الهامشي مارست لدى بعض الروائيين فعلها واستدعت ضروراتها الفنية فأبدعت عالما روائيا عبر عن قدرته على المجيء بأناسه إلى هذا النوع الأدبي – الرواية – مساهما في تنوعه لاخاضعا لقواعده وقوانينه المنسوبة للغرب "[1] ،وفي هذا الصدد يقول الروائي جما العيطاني :" لا يمكن بحال الاحاطة في سطور بتلمشهد الكلي للقصص وروايات تناولت المهمشين،وإن كانت ثمة نماذج بارزة في تاريخ الابداع ،فهناك أعمال ديستويفسكي ، غوركي ، وتشوكوف ، وهمنجواي ، وموراڤيا ، وكامي ،وهنري ميللر، وكلها احتفت بشكل أو بأخر بنماذج من بشر عاديين "مهانيين "دائما على المستوى المعنوي والمادي ، بل أن بعضهم يحمل بين طياته مشاعر وأحاسيس عبقرية ، ولكنها لاتمنحه قدرا من التواصل الفاعل في مجتمعه ، وبذلك قد يلجأ البعض للانتحار أو الاستسلام للعجز كاشارات إدانة لواقع لايحق له الانصاف والحضور الطبيعي "[2] ،بمعنى أن المهمش هو كل منبوذ مقصي من الحياة بجميع مجالاتها وفروعها .

لقد عرفت الرواية الهامشية أنواعا فقد ظهرت الرواية الوردية ورواية الخيال العلمي والرواية البوليسية ، وأيا يكون شكلها ونوعها فهي كلها تتفق في أنها نوع أدبي يتخذ من القضايا الهامشية موضوعا له ، ويقوم برصد صور ونماذج المهمشين الذين عانوا من الظلم الاجتماعي والسياسي والثقافي ،حيث يؤكد أنور الخطيب على أن الرواية العربية تطرقت للمهمشين منذ زمن من خلال أعمال المغربي محمد شكري ، نجيب محفوظ ،محمد البسطامي ، صنع الله ابراهيم، وابراهيم أصلان من مصر ، إميل حبيبي ، وغسان كنفاني من فلسطين وغيرهم من دول العالم العربي ،ويلاحظ أن الرواية العربية المكتوبة ما بعد 2010 أخذت منحى آخر للحديث عن المهمشين ،بحيث ركزت على جانب تأمين العيش للفرد بكرامة والتعبير بحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية وكبح كل محاولات القهر والاقصاء السياسي ، وقضايا الاضطهاد الديني والسياسي .

فإذا قرأنا رواية " الحرافيش " لنجيب محفوظ دلعنوانها قبل نصها علىفكرة التهميش والمهمش الذي عرفناه من خلال البحوث الاجتماعية "فالحرافيش " كلمة تحمل دلالات الفقر والاقصاء والحرمان والظلم الاجتماعي والسياسي والثقافي و.....والابعاد ،فهي معبرة عن الهامش بكل مايحمل من صفات دالة عليه ، وكذا لو تصفحت رواية " أبناء حارتنا للنفس الروائي والتي تحكي عن عالم الفتوات لوجدتها تصور حياة الهامش وترصد قضايا هذا العالم ،ومن النماذج التي تطرقت للتهميش والهامش رواية "أيام يوسف المنسي " للسيد نجم فإن الهامش يطالعك من العنوان الذي يحيلك مباشرة على المعاناة والاقصاء المجسد في كلمة" المنسي " المحملة بدلالات كثيرة ترسم معالم الهامش الذي يؤكده نص الرواية بمايقدمه من صور .، دون أن ننسى رواية طه حسين "دعاء الكروان " التي عني الروائي فيها بمجتمعات مهمشة ، وكذا رواية "الخبز الحافي " لمحمد الشكري الذي أبدع فيها حيث نقل عالم الهامش بكل تناقضاته في المغرب مما عرض العمل للاقصاء .

1- هويدا صالح : الهامش الاجتماعي في الأدب ، ص 20 .

2- المهمشون.....كيف يعيشون في السرد العربي ؟ وكالة الصحافة العربية ، نشر في حريات يوم 1\1\ 2015

http :.//www .lurryatsidan.com.12p=91878

www.etudpdf.com

هذه ليست كل النماذج التي تناولت الهامش وإنما هناك الكثير منها على امتداد خارطة الابداع العربي مشرقا ومغربا .

تطبيقات :ابحث

- ماهي أبرز القضايا التي حضرت في الشعر الهامشي ؟

- كيف تعاملت الرواية الهامشية مع قضايا الهامش ؟

- ماهي خصائص أدب الهامش ؟

- كيف حضر الهامش في الابداع الجزائري (شعرا ونثرا) ؟

3- الأدب الساخر:

لقد اتخذ أدب الهامش من السخرية استراتيجية فنية للوقوف عند المخفي في المجتمع والتعريض به ، وفضحه في صورة مبكية مضحكة ، وقد اتخذ الأديب العربي القديم هذه الأداة الفنية وسيلة للتعبير عن رؤية للمجتمع والواقع المهمشين فيه سواء في الشعر أو النثر ،وقد عد الجاحظ في كتابه" البخلاء "و "رسالة التربيع والتدوير " من أوائل الكتاب الذين سعو إلى الكشف عن جوانب من اختلالات مجتمع العصر العباسي وعن واقع المقهورين فيه وذلك من خلال توظيف السخرية أفقا لكتابة الاختلاف واستراتجية الابداع أشكال تعبيرية جديدة لكن أبا حيان التوحيدي تفوق على أستاذه الجاحظ في السخرية وفي ابتداع أشكال فنية جديدة ومختلفة في عصره ولذلك نال حظا وافرا من الأذى وقسطا كبيرا من التهميش والتعرض للاغتيال.

والسخرية وجدت منذ الأزل ،مذ أدرك الانسان ذاتيته وتميزه عن الآخر فظهر مصطلح السخرية مع تشكل الجماعات البشرية وظهور مصطلحات القهر السياسي والتسلط [1] ،وقد بينت الدراسات الأثرية وجود رسومات كاريكاتورية تركها القدماء على جدران الأهرامات المصرية وكذا في أرجاء المعابد القديمة ،نذكر من ذلك "بردية "مصرية قديمة بيد رسام ساخر مجهول عن طائريصعد إلى الشجرة بواسطة سلم عوض استخدام جناحيه وهذا مخالف للمألوف وللمتعارف عليه في الواقع ماجعله موضعا للسخرية ، وبواعث السخرية كثيرة منها : - تعد سلاحا حادا للحصول على الحقوق المسلوبة .- هي الطريق المناسب لتنبيه الاشرار والمتعجرفين دون المخاطرة بالنفس .

- أسلوب انتقامي لما يتعرض له الساخر من ذل ومهانة .

ومهما اختلف نوع السخرية (انتقادية ، عقلية ، فكاهية) تبقى الغاية واحدة هي العلاج لما اختل واستراجاع الحق المهضوم ، والاهتمام بما همش ، ولقد نشأ هذا اللون وعرف عير العصور الأدبية ،ففي الجاهلية كان مرتبطا بالفنون الأخرى كالهجاء والذم وغيرها ، أما في العصر الأموي فقد اتخذت السخرية طابعا سياسيا حزبيا مع شعراء النقائض الأخطل وجرير والفرزدق وقد ظلت مرتبطة بالهجاء والمجون والمناظرات يميزها عنصر الاضحاك وتعمد الاساءة للمهجو.يطل العصر

1- نعسان أغا رياض فن السخرية في أدب حبيب كيالي : مجلة الفكر ، 2007 .

www.etudpdf.com

العباسي بازدهاره الذي عرفت فيه السخرية نقلة نوعية توضحت معالمها وبذأت وادها تترسخ خاصة وأن عددا كبيرا من الكتاب والشعراء جعلوا منها اسلوبهم الخاص في الكتابة والتعبير عن نظرتهم للوجود ومواقفهم من الواقع بتناقضاته من ذلك قصص " كليلة ودمنة "لابن المقفع التي كتبت على لسان الحيوان للتعبير عن الفوضى السياسية السائدة وعن الفئات المهمشة والمغلوبة على أمرها فهي بحق نماذج لأدب الهامش وكذا "رسالة الغفران " لأبي الغلاء المعري وغيرها من الكتابات ومن الشعر ماقاله ابن الرومي وابي نواس الذي تمرد على القصيدة الطللية قائلا :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلي عهد جدتها الخطوب [1]

إن ثورته هذه لم تكن ثورة رفض للقيم الفنية العربية القديمة في حد ذاتها بل هو رفض للتقليد ولمركزية الماضي وهامشية الحاضر دون مراعات للخصوصيات افنية والابداعية لكل عصر نويمكن أن نعد هذه دعوة منه للابداع والخلق الجمالي في الأدب ، كمانجد ابن الرومي ناقم ساخط على الأوضاع السياية والاجتماعية والاقتصادية المتردية يقول :

أتراني دون الأولى بلغو إلا مال من شرطة ومن كتاب ؟

تجار مثل البهائم فازوا بالمنى في النفوس والأحباب [2]

نلمح في هذين البيتين نوع من النقد الاجتماعي الذي يهدف لاصلاح الواقع ،وولايمكن أن نغفل عن الجاحظ الذي برز في فن السخري في هذا العصر حيث اتخذ من المجتمع مادة لكتاباته ،بحيث شق تيار جديد في الكتابة والابداع وكتابه "البخلاء " يعد واحدا من أشهر كتبه التي ألفها في هذا المجال وفيه " أضحكنا بتصويرطرقهم في الحرص والاقتصاد وحيلهم في صرف الضيوف من الطعام "[3]

وعليه يمكن عده أحد أشهر رواد هذا الفن في العصر العباسي حيث كانت السخرية طابعه الخاص في الكتابة والابداع ، حتى في أكثر المواضيع خطورة مهما كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية ، فالسخرية في العصر العباسي عرفت رواجا كبيرا باعتبارها أسلوب جديد "في الكتابة والتعبير عن قضايا المجتمع في تلك الفترة "[4] .أما في العصر الحديث فقد حضرت السخرية لأن انسان فيه عان من مشاكل عديدة نابعة من تركيبة المجتمع العربي الذي تسوده المفارقات والصراعات السياسيةوالاجتماعية ، ويلات الاستعمار وما فعله في هذه المجتمعات أضف إلى ذلك فساد الأجهزة السياسية الحاكمة في البلاد العربية وتخاذل الحكام عن حل قضايا المواطنين والاهتمام بمشاكلهم وتهميشهم،فكان لهذا الوضع المتأزم وقع خاص في نفس المثقف العربي الذي حياته " مهملا مهمشا

1- فاغورعلي ، شرح ديوان أبي نواس ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط2، : 1994 ،ص 35 .

2- بسج أحمد حسن شرح ديوان ابن الرومي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1: 1994 ، ص 189 .

3- الجاحظ عمرو بن بحر: البخلاء ، شرح كرم البستاني ، دار صادر ،بيروت ،ط1 ،1963،ص 7 .

4- سامية مشتوب :السخرية وتجلياتها الدلالية في القصة الجزائرية المعاصرة – رسالة ماجستير ،جامعة مولوج معمري تيزي وزو، الجزائر 2011 ،ص 17 .

www.etudpdf.com

...كغيمة الصيف لاهو جانب البر ولا جانب البحر "[1] فكانت هذه المعاناة وهذا الألم وهذا التهميش مادة دسمة للأدب العربي الساخر الذي احتفي بقضايا الفئات المحرومة المهمشة ، والقضايا الممنوعة ، ومنبرا لرفض الواقع العربي والثورة والتمرد عليه بأسلوب ساخر والاسماء كثيرة في الشعر والنثر نذكر مثلا الشاعر العراقي أحمد مطر الذي تعج قصائده بالرفض والنقد والثورة كل ذلك بأسوب ستخر رمزي ومن ذلك ماقاله في الساسة العرب وما يمارسونه من قمع واضطهاد تجاه المثقف العربي بغية خنق الحريات وخماد صوت الحق وفرض سيطرة المركز : "

قرأت في القرآن

تبت يدا أبي لهب

فأعلنت وسائل الذعان

أن السكوت من ذهب

أحببت فقري .... لم أزل أتلو :

وتب

ما أغنى عنه ماله وماكسب

فصودرت حنجرتى

بجرم قلة الأدب

وصودر القرآن

لأنه ....حرضني على الشغب"[2]

فهذه الأبيات تعبر عن حالة الرفض التام واستنكار شديد لحالة الحصارالاعلامي المفروض عليه من قبل أصحاب السلطة والقراربهدف قطع أي اتصال له بالآخر (المجتمع) وهو ماجع عبارة أن السكوت من ذهب تحمل كل معاني الاضطهاد والقمع ، الامر الذي سبب له ألما عميقا وإحساسا كبيرا بالمرارة ، كذلك نجد إبراهيم عبد القادر المازني الذي كانت معظم كتاباته حافلة بالصور المضحكة والأساليب الساخرة ، فهو " يسخرحين يتناول كاتبا أو كتابا حين يتناول بالوصف قطاعا من الحياة المصرية ....يسخر قصاصا من أبطال قصته ، ويسخر صحفيا من الساسة والصحافة والأحزاب لكن سخريته تبقى أقرب إلى الفكاهة منها إلى السخرية كمذهب باعتارها تبعث على التفكه والمزاج "[3]

1- السعيد بوطاجين :1999 ،ص 7 .

2- كحوالمحفوظ لاتا :أروع قصائد أحمد مطر ، مكتبة نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ص 20 .

3- أحمد فؤاد نعمات : 1999المازني الساخر سلسلة أحاث ومؤتمرات المجلس الأعلى للثقافة، مصر ، ص 197- 200 .

www.etudpdf.com

لقد كانت السخرية أسلوبا استخدمه الادباء لتصوير عالم الهامش ،وللتعبير عن عن رفضهم لهذا الواقع ، ومثلت مملمحا من ملامح تمردهم وتورتهم التي اتخذت أساليب مباشرة غير مباشرة ، فكان الأدب الساخر لون من ألوان أدب الهامش وفنونه ووسائله للتعبير عن معاناة المهمشين ، والدفاع عنهم .

تطبيق : كيف اسهمت السخرية في فضح عالم الهامش ؟

4- الكتابة الجدارية :

يقول الكاتب "ادواردو عاليانو ": " الجدران دور نشر الفقراء "

إن الرسم والكتابة على الجدران والأبواب قيمان قدم الانسان نفسه أوجدتهما حاجته الملحة إلى التعبير ورغبته العارمة في التغيير استعمل فيها أدواته البدائية من فحم وأحجار ونحوهما ، ليسجل حكمته وأقاصيصه ويشكو التقاليد القاسية ويبوح بهجاء السلطة التي تهدد وجوده وحريته .

وصارت هذه الوسيلة على مر الزمان وسيلة ناجحة لدى المهمشين والمقموعين، حيث تمارس في الأماكن المفتوحة على حين غفلة من الناس حتى لايعرف كاتبها فيبطش به ، تدون بمواد سريعة المحو لذا عرفت بالأثر الدارس والفن الزائل .

الكتابة على الجدران أو الغرافيتي فن حديث لكن جذوره قديمة فقد اتجه الانساننحو الكتابة الحائطية بداية من الجبال والكهوف " حيث نقش وكتب وخربش على وسائط مختلفة ، مما جعلها تنحدر من النقوش الأثرية حسب آلان ميلون"[1] ،فهذه الرسومات والكتابات لم تكن تعبير عن الحياة اليومية لكاتبها بل نافذة يمكننا من خلالها معرفة مظاهر الحياة والعادات والتقاليد .....والحضارة على نحو بقايا حضارة الميا وبيتكا والأزتك وكذا غرافيتيا الطاسيلي بالجزائر وقد احتلت الكتابة المركز في بدايتها حيث تعد الحضارة " من أهم الحضارات التي بحث العلماء في آثارها الجدارية الجدارية المكتوبة ، خاصة داخل الأهرامات وقبور الفراعنة ، حيث اعتمدوا على تحليل الكتابات الصورية ، هذه الأخيرة تعد مرحلة من مراحل التعبير الخطي " [2] . وعن المفهوم الحديث للكتابة الجدارية غرافيتي الذي يعد مفهوم حديث في اللغات الأوربية والذي يشير " إلى أي نوع من الرسم والنقش أو الكتابة على الجدران ،والتي تتراوح بين نقش بسيط ولوحة فنية معمقة ....أما كلمة غراف : تعني النمط أو الكتابة أو الرسم ، وكلاهما ممارسة شبابية معمقة ذات خصوصية متفردة ، وذلك بحكم مضامينها الخاصة ، وبحكم عدم الاعتراف بها من قبل السلطة "[3] ،ولكون السلطة لاترضى عنها عنها فهذا سيحيلها مباشرة إلى الهامش ويمنع عنها منصب المركز ، ويعد القرن العشرين وبالضبط تاريخ 1928 نقطة تحول نوعية في الكتابة الجدارية نقلتها إلى الدراسة على يدالباحث

1- باي بوعلام : هوية الطالب الجزائريمن خلال الكتابة الغرافيتية جامعة تلمسان نموذجا ، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع ، جامعة أبو بكر ، تلمسان ، 2012- 2013 ، ص 30 .

2- جباركنزة : اتجاه الطلبة الجامعيين نحو الكتابة الجدارية (دراسة ميدانية لعينة من الطلبة الجامعيين بجامعة الحاج لخضر ، باتنة)،رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس تخصص علم النفس الاجتماعي ،2013-2014 .

3- المرجع نفسه ، ص 28 .

www.etudpdf.com

اللغوي الأمريكي آلان وولكر راد " الذي قام بتحليل المفردات اللغوية الانجليزية المرسومة على جدران المراحيض غرب الولايات .

وتنقسم الكتابة الجدارية إلى قسمين : كتابات عامة تشمل الأسماء والرموز المعبرة عن الهوية الشخصية والجماعية.

وكتابات خاصة وتضم الكتابات المنتشرة على مختلف جدران المراحيض ، المطاعم ، الجدران الداخلية للمنازل [1] وقد تعددت التسميات لهذا المصطلح منها الخربشات والبوح الجداري ،وهناك بواعث منها النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي حركت هوؤلاء التعبير عن مكنوناتهم وعن آلامهم من خلال هذا النمط الكتابي . وقد عرف هذا النوع عند السجناء والعشاق والمجانين .

ولقد كان للظاهرة حضور في الجدار العربي فعلى " الرغم ما للظاهرة من أهمية إلا أن التاريخ الاجتماعي العربي لم يكتب في تفاصيله عن هذه الظاهرة ولم يوليها أهمية كبرى"[2] ، لذلك اختلف الباحثون في أصل الظاهرة في المجتمعات العربية بين عصور ماقبل التاريخ وهناك من يرجعها للعصر العباسي الذي أنشىء فيه نظام العسس ،فكان متنفس الأفراد هو الكتابة الجدارية التي عبرو فيها عن كل تضييق وتربص بهم ليكون الجدار سترا أو أمانا عليهم مثال ذلك مايذكرة محمد صادق الكرياسي " من معارضة أهل بغداد للسلطة العباسية خاصة في عهد الخليفة المتوكل يصف ذلك بقوله : " أنخ لما شاع ظلم المتوكل وذاع خبر هدمه قبر سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس ، كتب أهل بغداد ولأول مرة في تاريخ الإسلام ، عبارات شتم على الحيطان"[3] ،وهم أصحاب المذاهب المخالفة للسلطة ،وماكان على هذه الأخيرة إلا أن تعاقيهم ونهمشهم ، فرضوا بالتهميش لكنهم فروا من الغقاب ، والنصوص الدالة على هذا كثيرة .لقد ضحى الكتاب الجداريين بابداعاتهم ولم يهتموا لابشهرة ولانسبة بل عاشوا تحت الترميز والتخفي خوفا من عقاب السلطة،حيث يرى حسن بحراوي "أن عاقبة الانزياح تكون وفق موقفين متضادين :- استقطاب النخبة القارئة ذات الميول الانقلابية أدبا للثابت والمكرس اجتماعيا وأخلاقيا.

_ استشارة الرقابات الرسمية التي تمثلها الأسرة والمجتمع والدولة ،وكل ما يندرج في إطار المؤسسة بأوسع معنى ممكن "[4] .

وفي أدب الهامش الاستقطاب لن يكون لفرد معين معروف بل إنه" سيكون لمسمى نكرة "كاتب جداري وعليه فهم نوع من أدباء الهامش يعيشون في الظل بعيدا ، ويفقدون الأمل في البروز ، فيموتون ويرحلونمن الحياة دون أن ينتبه لهم أحد "[5] ،فهؤلاء الأدباء اتخذوا من الكتابة الجدارية

1- ينظر : باي بوعلام : هوية الطالب الجزائري من خلال الكتابة الجرافيتية ،ص 36 .

2- جباركنزة : اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية ، ص 64 .

3- باي بوعلام : هوية الطالب الجزائري من خلال الكتابة الجرافيتية ،ص 77 .

4- حسن بحراوي :أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية ، مجلة علامات ،المغرب ، العدد 18 ، 2002،ص10.

5- عبد الرحمان تبرماسين ، صورية جيخ :مجلةالمخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ،جامعة بسكرة ، العدد 10 ،2014 .

www.etudpdf.com

وسيلة للتعبير عن رفض وتمرد ومخالفة وتحدي من نوع ثقيل خصوصا للجاني السياسي ، ولأنها كذلك غالبا ما نظر إليها على أنها ظاهرة "ممقوتة نابعة من قلة تربية وتخلف ونقص في التحضر والتمدن والتدين ، تمثل منحدرا سلوكيا سيئا دون الاكتراث بأسبابها الحقيقية "[1] ز

تصنف الأنثربولوجية "س فليبس "الكتابة الجدارية بقولها :" أضحت من أقوى الغات والخطابات الثقافية لعصرنا لارتباطها بالتغيير السياسي والديني والفني للمدينة "[2] ، والملاحظ على الكتابات الجدارية العربية أن أغلبها مرتبط بالواقع السياسي ، وربما يرجع هذا للصبغة السياسية المتوترة التي تعيشها البلدان العربية مثل لبنان، فلسطين ، الكويت ، الجزائر ، تونس .....ففي لبنان استعملت الكتابة الجدارية كوسيلة للتعبيرعن الأحزاب والطوائف والمليشيات اللبنانية ، وكذا في فلسطين المحتلة التي اتخذتها " المنظمات الفلسطينية وسيلة للتشهير بشعاراتها الإيديولوجية ...لنشر أخبار نضالها السياسي والعسكري ضد المحتل الصهيوني ..."[3] .

إن معظم الكتابات الجدارية تستعمل اللغة أو اللهجة العربية المحلية ن وهو أمر منطقي فهو أدب يدخل أغلبه ضمن دائرة " الأدب الشعبي ، عاكس للثقافة المحدودة لكتابه الذين لايتمتع أغلبهم بمستوى تعليمي عالي ، والدليل كثرة الأخطاء الاملائية ، الايجاز الشديد ،السرعة والعفوية ، ويرجع هذا للأوضاع المحيطة بالكتاب الجدارين ولنوع الكتابة ، وهي تكتب بمواد بسيطة كالفحم أوالرذاذ ....فيكون مصيرها الزوال بسرعة ،فمعظم الحكومات تسعى إلى تنظيفها لأنها ترى فيها تلويثا للبيئة ، كلام لا فائدة منه ، فأدب المركز يرفضه ويرفض لغته ويعتبها غير راقية ولاتعنى بالشكل أو بنوعية المتلقي ، غير ن الكتابات الجدارية في "تمردها على قانون النوع كانت تسعى إلى التوصيل المعرفي أكثر من صنع جمالية جديدة فب سبيل توصيل معلومة "[4] ، فالأدب الهامشي عامة والكتابة الجدارية حاولت كسر الحدود والوصول إلى المتلقى حيث ارتبطت بحركات المعارضة المتنوعة سواء سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فنية وعليه صنفت ضمن الأدب الهامشي ، على الرغم من قدمها إلا أنها كتابات تعالج قضايا الرفض والتمرد وقضيا الأقليات المضطهدة ، ترسم معالم الهامش عدت لون من ألوان أدب الهامش .

تطبيق :لماذا عدت الكتابة الجدارية أدب هامش ؟ هات أمثلة عن الكتابات الجدارية .

1- باي بوعلام : هوية الطالب الجزائري من خلال الكتابة الجرافيتية ، ص 110 .

2- المرجع نفسه ، ص 38 .

3- المرجع نفسه، ص 73 .

4- آسيا بن عبدون : نطولوجيا الأدب الهامشي (المصطلح والحمولة المعرفية ، ص 39 .

www.etudpdf.com